أرطيون العـرب

عمرو بن العاص

رضي الله عنه

كثيرا ما تتغلب العقول على أعتى الأسلحة !

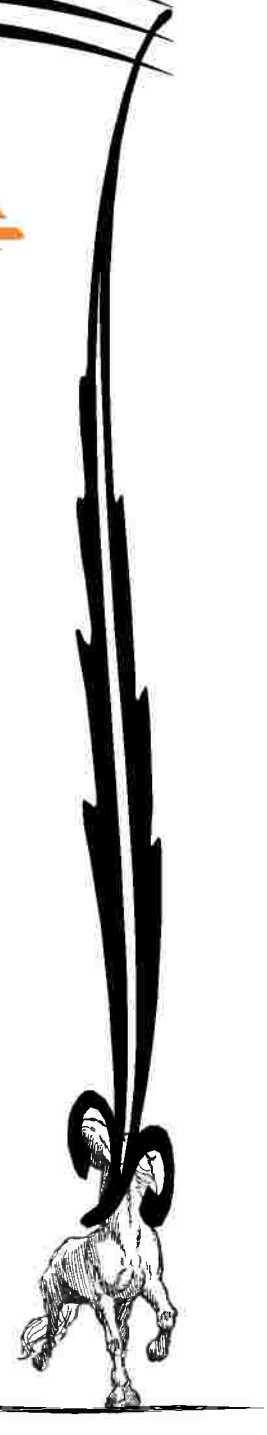

« مصيبة.. لابد أن يعودوا بأي ثمن.. بأي ثمن ».

صاح بها أبو سفيان في غضب عارم، في الاجتماع الطارئ الذي عقد لبحث أمر الهجرة إلى الحبشة، والذي تسلل فيه أكثر من ثلاثة عشر رجلا وأربع نساء من المسلمين، وأصبحوا في حماية النجاشي، في السنة الخامسة من البعثة.

وتابع أبو سفيان في حنق:

- ما هذا الذي يحدث؟! إسلام حمزة وعمر في أقل من أسبوع، ثم هروب المسلمين إلى الحبشة؟!

ولاحق آخر:

- محمد يخطط لقاعدة جديدة في الحبشة، بعيدة عن أعيننا، وربما تنمو هذه القاعدة يوما، وتعود إلى مكة فتهددنا، بعد أن تكون أكثر قوة.

نظر إليه أبو سفيان قائلا:

- نعم..ألعوبة جديدة من ألاعيب محمد، لن ندعه يكملها..أبدا.

قال آخر وقد بدا عليه أنه وجد حلا للمشكلة بعد تفكير:

- نبعث إليهم بداهية العرب، وصديق النجاشي.

نظر إليه أبو سفيان هنيهة وهو يفكر قائلا:

- نعم.. ليس لهم إلا هو..الوحيد الذي يستطيع أن يخرجنا من هذا المأزق الصعب.

وتابع في تحد وهو لا يزال يتابع تفكيره العميق قائلا:

« عمرو بن العاص».

* * *

«ما هي خطتك ؟».

قالها عبد الله بن أبي ربيعة، والذي وقع عليه الاختيار ليرافق عمرو بن العاص في مهمته في الحبشة، وهما في طريقهما إليها، وما إن قالها لعمرو، حتى التفت إليه في حركة قيادية يعرفها أصحابه عنه، قائلا في حزم وسرعة: لتفكر في الأمر جيدا..

- أولا.. كل الهدايا الجلدية الثمينة التى أعطتها لنا قريش لنهديها للنجاشى، لن نعطيها له كلها، سنمر على حاشيته من البطارقة أولا، نوزع عليهم الهدايا، ونوضح لهم خطورة وجود المسلمين في بلادهم على مراكزهم، وتسببهم في إحداث القلاقل على نظام الحكم في البلاد، بعدها نتوجه للنجاشي، وعندما نشرح له الأمر، نكون قد كسبنا في صفنا البطارقة، فيضغطون عليه لقبول

طلبنا، وتنتهي المهمة.

قال عبد الله وهو يعقد حاجبيه:

- أتظن أن النجاشي سيمر عليه الأمر بهذه السهولة ؟، ثم إنه ألا يغضب من مقابلتك لحاشيته قبل مقابلته ؟

ابتسم له عمرو في دهاء وثقة قائلا:

- لا عليك.. النجاشي صديقي وأنا أعرفه، وأعرف كيف أتصرف معه.

كانت ثقة عبد الله في عمرو بن العاص، وشهرته الواسعة بذكائه في مكة، كفيلتان بأن يطمئن عبد الله لخطته..

وتابع الاثنان انطلاقهما إلى الحبشة..

حيث صديقهما النجاشي..

والمسلمين الفارين من مكة..

والمهمة الصعبة.

* * *

« أيها الملك.. إنه قد ضوى لك إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، بل جاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردهم إليهم».

بكل ثقة.. هتف بها عمرو بن العاص للنجاشي، والذي كان يجلس على كرسيه العالي في وقار مهيب، وقد أحاط به الأساقفة ورجال الحاشية على جانبيه.

وما إن انتهى عمرو من كلامه، حتى توقع من النجاشي الموافقة الفورية على طلبه، إلا أن رد النجاشي كان مفاجأة لعمرو، فلم يكن يتوقع أن لا تدفعه صداقته الحميمة له، وإغداق الهدايا الثمينة عليه، وتكتل البطارقة حوله- إلى الموافقة الفورية على طلبه ولكنه يتريث قليلا للتفكير في الأمر، وإذا به يطلب وفدا من المسلمين، لسماع أقوالهم وتبين الحقيقة.

بالتأكيد كان عمرو يعرف عن النجاشي قوة الشخصية، والرغبة في تحري الحقيقة، والحكم بالعدل، ولهذا.. بنى خطته على محاصرته من كل جانب، ليتنازل عن أسلوبه في هذا الموقف..

هذا الموقف فقط..

لكن الخطة لم تفلح.. ليطلب النجاشي العادل المواجهة..

بين عمرو بن العاص.. وجعفر بن أبي طالب قائد المسلمين في الحبشة.

ويأتي جعفر..

كان دخول جعفر بن أبي طالب الهادئ الواثق على النجاشي، مثيرا لقلق عمرو..

فجعفر.. ليس خفيا عليه..

شجاعته.. لباقته.. حكمته.. يضاف إلى ذلك شخصية النجاشي، ورغبته في الاستماع للطرف الآخر..

إنه فعلا أمر مثير للقلق..

وفي ترقب كامل من جهة عمرو، أخذ يستمع إلى خطاب جعفر للنجاشي وهو يقول:

«يا أيها الملك.

كنا قوما أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان..

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء..

ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.. فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاءه من ربه، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فغدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، وإلى ما كنا عليه من الخبائث..

فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك».

انتهى حديث جعفر، ليدرك عمرو بن العاص أن مهمته قد ازدادت صعوبة، لأكثر مما كان يتوقع..

عبقرية في الرد لم يتوقعها عمرو، شرح للقضية في سهولة ويسر، وفي كلمات بسيطة دون تعقيد، ونجاح في كسب تعاطف النجاشي، بعد عرض القهر والظلم الذي يتعرض له المسلمون في مكة من قريش..

لقد استطاع جعفر أن يأخذ طرف الخيط من عمرو بقوة، لينجذب له النجاشي، ويطلب منه أن يستمع إلى بعض آيات من القرآن..

لقد دخل القرآن المعركة، وهوالسلاح الرباني الذي يستطيع أن ينسف أية محاولة لعمرو..

فتأثير القرآن لا يخفى على عمروأبدا..

و بذكاء نادر ، يختار جعفر آيات من سورة مريم، ليقرأها على النجاشي..

ويزداد قلق عمرو وهو ينظر إلى النجاشي، وقد بدت ملامحه تتغير شيئا فشيئا، وبدأ التأثر الشديد ينسحب على وجهه، حتى تساقطت الدموع من عينيه..

لقد بكى النجاشي.. وعمرو لا يكاد يصدق ما يحدث..

إلا أن المفاجأة التى أذهلته أكثر وأكثر، أن «جعفرا» لم ينجح في أن يؤثر على النجاشي فقط، بل نجح في التأثير على الأساقفة أيضا..

ولم يصدق عمرو عينيه عندما التفت ليجدهم يبكون تأثرا بما قال جعفر..

الأساقفة الذين راهن عليهم، واعتبرهم رأس الحربة في خطته، فأولاهم بالاهتمام والهدايا والمناقشات الطويلة لإقناعهم بوجهة نظره..

بكوا من كلام جعفر!!

إلى هذه الدرجة انتصر جعفر؟!

ويرفع النجاشي رأسه والدموع تتساقط من عينيه وهو يقول في تأثر:

- إن هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة..

ووسط ذهول عمرو بن العاص الذي ألجم لسانه، نظر النجاشي إليه بغضب ليطلق قذيفته قائلا:

- انطلقا.. فوالله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

انتصار ساحق.. وهزيمة منكرة!

داهية العرب، وصديق النجاشي، الذي جاء في مهمة اعتبرها محسومة بلا جدال..

يهزم هذه الهزيمة أمام جعفر ورفاقه..

وجن جنون عمرو، وتملكه الغيظ ، واشتاط غضبا وهو يقول لعبد الله بن ربيعة:

- والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم.

لم يستسلم عمرو إذا ، ولازال يعد لجولة أخرى بكل وسيلة، حتى وإن كانت إيقاع الفتنة بين النجاشي والمسلمين..

نعم.. إنها الفتنة..

لابد أن يبلغ النجاشي بما يقوله المسلمون في عيسى.

ورغم توسلات ابن ربيعة له بأن يكتفي بما فعل، فينسحب ولا يلحق الضرر بأناس هم لا يزالون أهلهم مهما فعلوا.

إلا أن « عمرا» كان مصرا على النجاح في المهمة بأي ثمن.

وينجح عمرو في استثارة النجاشي، والذي ما يلبث أن يسمع كلام عمرو، حتى يطلب الرد

من المسلمين..

وينجح عمرو بدهائه في أن يصيب المسلمين بالقلق البالغ، بعدما كانوا قد تصوروا أن المعركة قد انتهت..

إلا أن « عمرا» استطاع أن يحيي المعركة من جديد..

ويتفاوض المسلمون، ليستقروا على رأي واحد..

الحقيقة.. ولا شيء غير الحقيقة.

ووقف جعفر أمام النجاشي، وهو يرى عمرو بن العاص يبتسم ابتسامة خبث ودهاء، وأخذ يقول:

– نقول في عيسى الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

وفي الوقت الذي انتظر فيه عمرو غضبا وثورة عارمة من النجاشي، وقرارا حاسما بطردهم من البلاد، فإذا بالنجاشي ينهض في هدوء من على كرسيه المهيب، ثم يسير بضع خطوات، ويلتقط عصا رفيعة من الأرض ثم يقول:

– والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت، هذا العود.

وهنا ثار الأساقفة من حوله، معترضين على ما قاله، فلم يعبأ بهم النجاشي ولم يعرهم اهتمامه، وفي شجاعة زعيم عادل، نظر إلى جعفر وإلى من حوله من المسلمين قائلا في حزم وقوة:

– اذهبوا.. فأنتم آمنون بأرضي، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي جبلا من ذهب، وأني آذيت فيكم رجلا منكم..

ثم نظر إلى حاشيته وهو يشير بيده إلى عمرو وابن ربيعة قائلا في غضب:

– ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها..

كان ذهول عمرو بن العاص أكبر من أن تصفه الكلمات والجمل، وألجمت الصدمة لسانه عن الكلام، وشلت عقله عن التفكير لدقائق.

لقد هزم..

هزم هزيمة لا رجعة فيها، وانتهت المعركة.

وطأطأ عمرو بن العاص رأسه في أسف وحسرة، لا يدري ماذا سيقول لقريش عندما يعود..

بل إنه لا يدري أصلا كيف يعود..

ومرت الساعات ثقيلة مؤلمة على عمرو، قبل أن يعد العدة للعودة إلى مكة، وهو يجر ذيول الخيبة، ويحمل مرارة الانكسار..

إلا أنه لم يرد أن يعود قبل أن يدبر لخطة جديد، تؤتي آثارها مع الزمن..

خطة الانقلاب على النجاشي نفسه..

فإذا به يعود إلى البطارقة مرة أخرى، ليشحنهم ضد المسلمين، ويحذرهم من مخططاتهم داخل الحبشة.

بعدها.. لم يكن لعمرو وابن ربيعة أي داع للبقاء في الحبشة..

بعد أن انتهت المهمة بخسارة فادحة..

ومريرة.

* * *

لم تصدق قريش ما حدث في الحبشة..

لم تصدق أن دهاء عمرو بن العاص، قد غلبه ذكاء ولباقة جعفر بن أبي طالب..

إلا أنها كانت الحقيقة.. والأمر الواقع..

وأيقنوا بعدها أن الأمر قد أصبح بالغ الخطورة..

وأن الرسول ﷺ قد استطاع رغم كل الظروف، أن يكتسب أرضا جديدة لدعوته، تكون قاعدة احتياطية له إذا ضرب في مكة..

و لم يكن أمامهم إلا أن يقضوا على الدعوة في مكة..

فاشتد التعذيب أضعافا، وبدأت المؤامرات لاغتيال الرسول ﷺ نفسه..

وأمام إصرار المسلمين وثباتهم، لجؤوا إلى المقاطعة التى استمرت ثلاث سنوات كاملة، حتى أذن الله عز وجل بفضها على أيدي أناس من قريش نفسها..

وبدأ الرسول ﷺ يكسب أرضا جديدة في المدينة على يد مصعب بن عمير.. وأيقنت قريش أن الأمور قد بدأت تتفلت من أيديهم أكثر وأكثر، وأن الدعوة قد خرجت بالفعل خارج مكة..

ويستمر الصراع..

حتى يأتي اليوم الفارق في تاريخ الدعوة..

يوم الهجرة إلى المدينة، وبدء تأسيس مجتمع للمسلمين فيها..

وكان عمرو يراقب الموقف كله..

كان يفكر ويخطط ويشترك فيما تفعله قريش..

لكنه كان مثل قريش، يدرك أن الأمور تنسحب من تحت أيديهم رغما عنهم، وأن قوة كبيرة تساند محمدا ﷺ، أكبر من هذه الأعداد القليلة التي معه، ومن تلك الإمكانات الضعيفة التي يمتلكونها..

شعر بذلك في بدر..

وأبصرها من بعيد في أحد..

وذهل بها في الأحزاب..

وأيقن بها بعد صلح الحديبية ..

وبدأت الحقيقة تقترب..

وتقترب.

* * *

لم يكن صلح الحديبية رغم شروطه المجحفة للمسلمين حدثا عاديا أبدا..

إنه انتصار سياسي بارع لمحمد ﷺ ، أنهى المسالة تماما لصالح المسلمين والدعوة.

هكذا رأى عمرو بن العاص الموقف، كما رآه صاحبه خالد بن الوليد، وكما رآه كل من يملك رؤية سياسية عميقة للموقف ..و..

« لقد انتهى الأمر.. وانتصر محمد ».

هكذا قال عمرو بن العاص لنفسه في حزن بالغ وأسف عميق، بعد أن اتخذ قراره بالرحيل خارج مكة..

لم يعد له مكان فيه بعد..

لقد انتهى الأمر، وستتوالى الأحداث، ويأتي المسلمون إلى أرضه آجلا أو عاجلا..

لن يستطيع أن يمكث في مكة حتى يراهم بنفسه على خيولهم يطؤون أرضه..

لن يتحمل مرارة هزيمة أخرى..

وليس له إلا أن يرحل..

إلى صاحبه..النجاشي...

الآن.. وبعد كل هذه السنوات، يلجأ عمرو بن العاص إلى نفس المكان الذي ذهب إليه ليطرد المسلمين منه..

الآن وبعد كل هذه السنوات، يطلب الحماية من النجاشي كما طلبها المسلمون من قبله..

إلا أنه يبدوأن الحبشة قد اعتادت أن تستقبله بالمفاجآت..

ولقد كانت المفاجأة هذه المرة من العيار الثقيل..

الثقيل جدا.

* * *

« أطعني يا عمرو واتبع محمدا، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه».

ربما كان مقدورا لعمرو أن يفاجئه النجاشي...

ولكن المفاجأة هذه المرة، كانت من نوع مختلف..

فعمروالذي ذهب إلى النجاشي لاجئا إليه، لينجو من هجوم محمد المنتظر على مكة..

إذا به يذهب إليه، فيجده وقد أسلم..

ما توقعه عمرو كان صحيحا..

إن دعوة محمد بدأت تذهب بعيدا بعيدا..أكثر مما توقع..

إن دعوة محمد لن يستطيع أحد إيقافها من يوم أن خرجت من مكة، ولن يستطيع أحد إيقافها بعد اليوم..

دارت الدنيا برأس عمرو، وأدرك أن الحبشة لم تعد مكانه..

وللمرة الثانية.. يعد العدة ليعود إلى مكة منكسرا مهزوما..مذهولا..

إلا أن المفاجآت لا تريد أن تتركه.. أو أن الحقيقة لا تريد أن تتركه..

إنها تطارده في كل مكان..

وكان موعده معها هذه المرة، على مشارف مكة..

فبمجرد دخوله مكة، قابل خالد بن الوليد ومعه عثمان بن طلحة...و

« إلى أين تتجهان؟ » .

نطق بها عمرو بن العاص لخالد وعثمان، وقد رآهما بفرسيهما حاملين أمتعتهما..

فقال له خالد في هدوء من وصل إلى الحقيقة:

- إلى المدينة يا عمرو.

قال عمرو متسائلا في تعجب:

- المدينة؟ ولم المدينة يا خالد؟

نظر خالد إليه بابتسامة حانية وهو يقول:

- حيث رسول الله ﷺ يا عمرو.

ولم يكن الأمر بعدها يحتاج إلى تفكير طويل..

لقد أيقن عمروأن الدعوة قد أصبحت تحاصره في كل مكان، وأن الحقيقة تغافله، ثم تظهر له في كل مكان يذهب إليه، وكأنها مارد..

لم يعد هناك داع للهروب والمناورة أكثر من ذلك..

وما هي إلا دقائق، حتى يغير عمرو وجهته، مصطحبا خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة إلى آخر مكان توقع عمروأن يذهب إليه يوما.

إلى المدينة.. إلى رسول الله ﷺ.

* * *

« لقد رمتكم مكة بفلذات أكبادها».

هتف بها الرسول ﷺ لأصحابه في فرح، فور سماعه خبر قدوم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة إليه..

كانت المدينة تهتز من الخبر، ووقف الناس يتهامسون على جانبى الطريق، وهم يشاهدون رأي العين انتصارا جديدا مذهلا للإسلام، ما كان يتوقعه أحد، أن يسير الفارس خالد بن الوليد والداهية عمرو بن العاص إلى المدينة، ليشهدا أن لا إله إلا الله.

خالد الذي أذاق المسلمين المر في أحد..

وعمرو بن العاص الذي وصل بأذاه للمسلمين، ما وصل

فإذا بهما يأتيان دفعة واحدة ومعهما عثمان بن طلحة.

و يقترب الثلاثة أكثر وأكثر..وما أن تلتقي الوجوه، حتى يقف الرسول ﷺ مرحبا بالفوارس، وسط فرحة غامرة بين المسلمين..

ويبايع خالد..

وينظر الرسول ﷺ إلى عمرو بن العاص نظرة حانية باسمة وهو يقول:

« ألم يحن الوقت بعد يا عمرو؟ ».

ويسرع عمرو بن العاص إلى يد الرسول ﷺ يقبلها في ندم وهو يقول:

- إني أبايعك، على أن يغفر الله لي ما تقدم من ذنبي.

ويحيط الرسول ﷺ رأس عمرو بلمسة حانية من يديه، ويرفع وجهه برفق، حتى إذا لاقت عيناه عيني عمرو قال في حنان:

«يا عمرو.. ألا تعلم أن الإسلام يجب ما كان قبله؟».

نعم يا عمرو.. الإسلام يجب ما كان قبله..

سينسى الإسلام ما كان.. كل ما كان.. رغم قسوته ومرارته..

ويبدأ معك صفحة جديدة، تعمل فيها دهائك ومهاراتك النادرة في القيادة، في خدمة دين الله.

فلتستعد.

* * *

تأخر عمرو كثيرا في دخوله الإسلام..

لكن مهاراته القيادية الفذة وذكاؤه النادر وشخصيته الفريدة، أهلوه سريعا لأن يعوض ما فاته من خير..

فبعد إسلامه بأقل من عام واحد، وفي شهر جمادى الآخرة من السنة الثامنة للهجرة، يبعثه الرسول ﷺ على رأس سرية ذات السلاسل، لتأديب قبيلة « قضاعة » على حدود الشام، والتي تحالفت مع الروم ضد المسلمين.

وتفيد الاستخبارات بقوة جيش قضاعة، فيبعث عمرو إلى الرسول ﷺ بطلب المدد، فيبعث إليه الرسول ﷺ بأبي عبيدة بن الجراح على رأس مائتين من المهاجرين ، بينهم أبو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب، ومثلهم من الأنصار..

ويتولى عمرو قيادة الجيش بمجرد وصول الإمدادات، وينجح في مهمته.

إلا أن مهارات عمرو لم تقف عند المهارة الحربية فقط، فتاريخه مع المسلمين قبل الإسلام، كان يشهد له بمهارة الجدال والخبرة بأمور السياسة..

وهو ما جعل الرسول ﷺ يبعثه سفيرا له إلى ملكي عمان، ليدعوهما إلى الإسلام..

وينجح عمرو في مهمته ، ويسلم الملكان، ليكون دافعا للآلاف لاعتناق دين الإسلام..

ويوليه الرسول ﷺ على صدقة عمان، ويظل في منصبه قرابة عامين ، حتى توفي الرسول ﷺ في العام الحادي عشر من الهجرة.

ويتولى أبو بكر الصديق الخلافة، ليبدأ عهده بحروب الردة التي ينتصر فيها انتصارا ساحقا، يبدأ بعدها في حماية الدولة الإسلامية من خطر الفرس والروم..

ويأمر أبو بكر بتسيير جيش إلى الشام لمحاربة الروم، ليكون عمرو بن العاص أحد القادة الكبار الذين أرسلهم أبو بكر على رؤوس الجيش، وينجح عمرو بن العاص في مهمته التى كان مكلفا بها، وهى فتح فلسطين الجزء الجنوبي من الشام، قبل أن تصل إلى الجيش الأخبار بوفاة الخليفة أبي بكر الصديق، وتولي عمر بن الخطاب من بعده.

ومع بداية عهد عمر بن الخطاب.. تبدأ مرحلة جديد في تاريخ عمرو بن العاص..

مرحلة جديدة..

وخطيرة.

* * *

« خطر يا أمير المؤمنين..خطر » .

صاح بها عمرو بن العاص لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، والذي بدا غير مقتنع بكلام عمرو، والذي تابع في إصرار:

- خطر أن نترك مصر تحت سيطرة الرومان، بعد أن نجحنا في فتح فلسطين، فمن الممكن أن يتخذها الرومان قاعدة للهجوم على الشام في أي وقت.

محاولات عديدة حاولها عمرو بن العاص مع عمر بن الخطاب، ليقنعه بالموافقة على فتح مصر..

إلا أن عمر بن الخطاب ظل مترددا في قبول الفكرة .

كان عمر لا يريد أن يبتعد عنه جيشه، أو يفصل بينه وبين جنوده بحار، فيصعب عليه أن يتابعهم، ويتتبع أخبارهم، كما أنه كان ضنينا بجنوده، حريصا على حياتهم ألا يوردهم مورد الهلاك، ولا يدفع بهم إلا حيثما تتحقق الثمرة، وترجى الفائدة..

نعم.. كان عمر مترددا في قبول الفكرة..

لكنه كان معجبا بقائده الفذ عمرو بن العاص..

كان عمر بن الخطاب لا يخفي إعجابه بعمرو..

فهو يرى فيه قائدا بالفطرة، خلقه الله ليكون أميرا وزعيما..

شكله، وطريقة مشيته، وأسلوبه في الحوار والتفكير، وحيلته في التصرف، تجعله جديرا بأن ينصت أي إنسان أيا كان، لما يقول..

نعم.. كان عمر معجبا بعمرو.

« ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا».

هكذا قال عمر بن الخطاب عن عمرو بن العاص، عندما رآه يوما مقبلا عليه..

وعندما كان يجد شخصا عاجزا قليل الحيلة، يقول وهو يبتسم في عجب:

- سبحان الله..إن خالق هذا، وخالق عمرو بن العاص، إله واحد!

وعندما كان عمرو بن العاص في مواجهة الروم في الشام، قيل لعمر بن الخطاب في وصف قائد الروم:

- إن على رأس جيوش الروم بالشام أرطبونا (أي قائدا ماهرا شجاعا).

ويرد عمر بن الخطاب بهدوء وثقة وهو يبتسم قائلا:

- لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فلننظر عم تنفرج الأمور.

ولقد انفرجت الأمور عن انتصار أرطبون العرب على أرطبون الروم..الذي أجبره على الهروب إلى مصر، ليصر عمرو على ملاحقته، ويحاول إقناع ابن الخطاب بفكرته.

ويتغلب إعجاب عمر بن الخطاب بعمرو بن العاص وثقته في قدراته، على مخاوفه من فكرته..

فوافق في النهاية..

ويأمر بجيش قوامه أربعة آلاف جندي، يتجهون بقيادة عمرو بن العاص أرطبون العرب..
إلى أرض الكنانة..
مصر..

* * *

في العام الثامن عشر من الهجرة ، يخرج عمرو بن العاص من الشام على رأس جيش من أربعة آلاف جندي، مخترقا رمال سيناء، حتى وصل العريش والتى فتحها بدون مقاومة، ليواصل زحفه بعد ذلك إلى مدينة « الفارما » القبطية المحصنة، والتي حاصرها المسلمون قرابة شهر، حتى تمكنوا من فتحها وبمساعدة الأقباط أنفسهم.

ويحاصر المسلمون بلبيس شهرا، حتى تمكنوا من فتحها بعد حصار شديد، ليصبح الطريق ممهدا إلى حصن بابليون الذي تجمع فيه الرومان محصنين دفاعاتهم، بعد أن تيقنوا من خطورة الأمر، بعد أن أصبح المسلمون في وسط البلاد، ويلجأ عمرو بن العاص إلى طلب المدد من الخليفة، فيمده عمر بن الخطاب بأربعة آلاف مقاتل آخرين، وبخطاب جاء فيه:

« قد أمددتك بأربعة آلاف، فيهم أربعة رجال، الواحد منهم بألف رجل».

وكان هؤلاء الأربعة هم: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، والمقداد بن عمرو، وكلهم من شجعان الرجال وأبطال الحرب.

وتحت ضغط الحصار، لجأ قائد حصن بابليون إلى مناورة لقتل عمرو بن العاص..

فقد طلب قائد الحصن عمرو بن العاص للتفاوض، ويذهب عمرو ليوهمه قائد الحصن باتفاق صريح لصالح المسلمين..

ويخرج عمرو بن العاص، فإذا به يشعر بحاسته، بأن هناك حركة مريبة فوق أسوار الحصن، تيقن بعدها بأن أمرا يدبر لاغتياله، بإلقاء صخرة عليه من فوق الحصن.

وبسرعة بديهة نادرة، وقوة أعصاب غير عادية، يعود عمرو بن العاص بسرعة إلى القائد دون أن يظهر عليه أي اضطراب، ليقول له بسذاجة من ابتلع الطعم:

– لقد بادرني خاطر أردت أن أطلعك عليه، إن معى حيث يقيم أصحابي جماعة من أصحاب الرسول ﷺ السابقين إلى الإسلام، لا يقطع أمير المؤمنين أمرا دون مشورتهم، ولا يرسل جيشا من جيوش الإسلام، إلا جعلهم على رأس مقاتليه وجنوده، وقد رأيت أن آتيك بهم، حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت، ويكونوا من الأمر على مثل ما أنا عليه من بينة.

ويوافق القائد على الفور، ويأمر بإيقاف العملية وإرجائها إلى وقت آخر، حيث يكون الصيد فيه أكبر وأكبر..

لكنه لم يكن يدري، أنه هو نفسه سيكون الصيد الثمين..

ففي الصباح.. كان عمرو بن العاص بجيشه على أبواب الحصن، ليضربوا حصارا قويا عليه، في الوقت الذي تصل فيه الأنباء بوفاة هرقل ملك الروم، فتهبط معنويات الرومان، وترتفع معنويات المسلمين، ويتسابق الجنود في نيل الشهادة وتنفيذ العمليات البطولية، إلى أن تفتح الحصون وينتصر المسلمون، بعد أكثر من عام من الحرب المتواصلة.

وفي الثامن عشر من ربيع الآخر سنة عشرين من الهجرة، كان التاريخ يكتب صفحات جديدة على أرض مصر ..

بعد أن دخلها الإسلام.

* * *

تولى عمرو بن العاص إمارة مصر..ليبدأ أهل مصر عهدا جديدا، تحت الحكم الإسلامي، شهدوا فيه العدل بعد سنوات الظلم والاضطهاد تحت الحكم الروماني..

ورغم تقدير عمر بن الخطاب لعمرو، إلا أن هذا لم يكن ليمنعه من حسابه، إذا شعر يوما بارتكابه خطأ ما..

ولقد شعر عمر بالخطأ..

زيادة أموال عمرو بن العاص، إلى الحد الذي تجاوز المسموح به،حسب قوانين عمر بن الخطاب وأسلوبه مع ولاته..

وكان أكثر ما يحاربه عمر بن الخطاب، أن ينفصل الحاكم عن شعبه، فيصبح في طبقة مختلفة عنهم، فلا يشعر بهم ولا يتألم بآلامهم .

وعلى الفور.. يبعث عمر بن الخطاب « محمد بن مسلمة » ليقاسم عمرو بن العاص كل أمواله، ويعود بها إلى بيت المال.

ويستجيب عمرو بن العاص لقرار عمر، ولكنه يظل أميرا على مصر..

كان عمرو بن العاص محبا للإمارة..

وكان عمر يعلم ذلك..

وربما كان يراه العيب الذي غطته الكثير والكثير من المزايا النادرة لعمرو..

وكان عمرو تحت قيادة ابن الخطاب – كغيره من الولاة – تلزمه الرقابة الصارمة والمحاسبة الشديدة، على أن يسير في أطر معينة، لا يستطيع أن يحيد عنها.

تلك السياسية التي اتبعها عمر بن الخطاب، فحمت البلاد من الفتنة، أو أي بادرة فتنة.

إلى أن جاء الوقت الذي أطلت فيه الفتنة برأسها..

ليتحول الأمر إلى كارثة..

كارثة حقيقة.

* * *

يقتل الخليفة عمر بن الخطاب ..

ويأتي من بعده الخليفة عثمان بن عفان..

وبعد فترة.. يبدأ التآمر وإشعال نار الفتنة..

وتصل الفتنة أقصاها بقتل الخليفة عثمان بن عفان..

ويبايع الناس على بن أبي طالب، والذي يعزل كل من ولاهم عثمان درءا للفتن، فيقبلوا جميعا، إلا معاوية بن أبي سفيان.

وتشتعل الأمور...

وينقسم المسلمون لأول مرة إلى فريقين..

فريق مع علي بن أبي طالب، وآخر مع معاوية بن أبي سفيان..

يا للأسى.. ويا للمأساة..

ويقف عمرو بن العاص مع معاوية، يناصره بذكائه ودهائه وكل مشاعره..

ولا أحب أن أنهى قصة عمرو فاتح مصر ومحررها من الرومان، ورسول عمر بن الخطاب برسالة الإسلام إليها، بهذا الموقف..

ولكني أحب أن أنهيه بكلماته قبل لحظات من رحيله:

« كنت أول أمري كافرا.. وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ، فلو مت يومئذ لوجبت لي النار.. ثم بايعت رسول الله ﷺ، فما كان في الناس أحد أحب إلى منه، ولا أجل في عيني منه، ولو سئلت أن أنعته ما استطعت؛ لأني لم أكن أقدر أن أملأ عيني منه إجلالا له، فلو مت يومئذ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة..

ثم بليت بعد ذلك بالسلطان، وبأشياء لا أدري أهي لي أم علي».

ثم رفع بصره إلى السماء في ضراعة، مناجيا ربه الرحيم العظيم قائلا:

- اللهم لا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر.

وإلا تدركني رحمتك أكن من الهالكين.

وظل عمرو في ضراعته، وابتهالاته حتى صعدت إلى الله روحه، وكانت آخر كلماته:

لا إله إلا الله..

رحمك الله يا عمرو..

يا من يدين لك كل أهل مصر بنعمة معرفتهم الإسلام..

يا صاحب أول مسجد بني في مصر وإفريقية..

مسجد عمرو بن العاص..

رضي الله عنه.

* * *

١- من العقل والحكمة أن تتحدث عن نقاط الاتفاق مع الغير عند الحديث عن الإسلام، لا عن نقاط الاختلاف (جعفر بن أبي طالب يعرض النقاط المتفق عليها بين الإسلام والمسيحية عند عرضه الإسلام على النجاشي) .

عند طلب النجاشي من جعفر أن يقدم عرضا للإسلام، أتخيل أن رأس جعفر كانت مزدحمة بأفكار عديدة، اختار منها ما يتفق عليه الجميع، ولا يستطيع أن ينكره أحد مهما كانت ديانته أو ثقافته.. وهو جانب الأخلاق.

بعض الملتزمين لا يستطيعون التعايش مع غيرهم، وربما يكون غيرهم هذا أهل البيت ، بسبب أنه يعتقد أن الالتزام يعنى كشف نقائص الناس والبحث عن مناطق الخلاف لإبرازها والتناحر حولها، مما يوتر ويلهب العلاقة بينهم وبين الجميع.

إن الإسلام دين يجمع ولا يفرق، وعندما تنجح في الاتفاق مع غيرك على مساحة كبيرة، يصبح المجال مفتوحا لدخول منطقة الخلاف الأقل بأمان وسلام.. وبنجاح أيضا .

٢- الإسلام دين فلسفته في الإصلاح بنيت على الخلق (جعفر يركز على معاني الإصلاح في المجتمع عند عرضه للإسلام على النجاشي).

تحدث جعفر عن الأخلاق عندما تحدث عن الإسلام، وفي حديث النبي ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»..

يعنى هذا أن الدين الإسلامى يعتمد في الأصل في إصلاحه للكون على مبدأ الأخلاق، وهو ما تجاهلته كل الأنظمة الأخرى السائدة في العالم، فربما تنجح هذه الأنظمة في تحقيق نمو اقتصادي مبهر، لكنها تبدأ في التآكل من جانب آخر، بانهيار الأخلاق واستفحال نسب الجريمة..

إن الشعوب العربية عندما أجبرها حكامها على تقليد الغرب في شكله وسلوكه، أملا في أن يتمثل بهم في كل شيء، أصبح شبابها مسخا لا يجري إلا وراء التفاهات، ولا يعرف غيرها، وأصبح يعاني من اللامبالاة والاضمحلال الثقافي وفقدان الطموح والرغبة في صنع شيء مفيد، وابتعد تماما عن هموم وطنه وبلاده وأمته.

إن الشعوب العربية لا تنضج إلا بالأخلاق والإيمان، وفهم الحياة كما عرضها الإسلام وكما أراد الله لهم.

٣- الحق أقوى من الذكاء والدهاء والعدة والعتاد (عمرو بن العاص يذهب إلى النجاشي لاجئا فيجده قد أسلم) .

من عجائب القدر ما حدث لعمرو بن العاص، فلقد ذهب لاجئا إلى نفس المكان الذي ذهب

إليه المسلمون من قبل لاجئين عند النجاشي، بعد الاضطهاد الشديد لهم في مكة، ورغم ضعف المسلمين وقوة علاقة عمرو بالنجاشي وعلاقات قريش التجارية مع الحبشة، إلا أن الحق كان أقوى من كل ذلك، ليعود عمروالى قريش بعد أن فشل في مهمته.

وللمرة الثانية يعود عمروالى النجاشي لاجئا إليه ليفاجأ بإسلامه، فيخرج منها مهزوما عائدا إلى مكة، ليفاجأ بإسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة !!

لقد ظل الحق يطارد عمرو بن العاص سنوات، حتى استسلم له تماما في السنة السابعة للهجرة.

إن الحق غالب.. مهما طال الزمن، ومهما كانت قوة من يقف أمامه، فلن يستطيع أن يقف أمام قوة مستمدة من الله عز وجل.

* * *